الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رؤيا في السماء

بقلم الأديب فليكس فارس

إنك تتناول أدق المباحث الاجتماعية التي شغلت ومازالت تشغل المفكرين في كل عصر وفي كل بلاد ، تتناولها وتخوض غمارها معتكفاً على موضع السر في ثقافتك العربية ، مستنيراً بأضواء الكتاب الحق وحكمة من اهتدوا قبلك في هذا الشرق النير ، فكانت عبادتهم فلسفة ، وكانت صلواتهم استغراقاً وتفكيراً

كثير من مجددي الأنشاء في هذا الزمان ينحرفون عن ثقافتهم وغرائزهم القومية ، فينتحلون مذاهب كتّاب الغرب وأساليبهم ، أما أنت فمن الفئة القليلة الآخذة بروح الشرق لأحياء الشرق ، النافخة في الأحفاد أرواح أجدادهم

قرأت لك في منارة الغرب الوهاجة ، في (الرسالة) ، ماتتحف به العالم العربي من طرائف وبدائع ، فأيقنت أنك من الكتّاب العالميين الذين يستمدون آياتهم من الألهام ، ويستجلون الحقائق من قلب الحياة الخفّاق ، وما أقل من ينحنون على أنفسهم في هذه البلاد حين يكتبون ! وما أكثر من يستطيعون الرواسم وينقلون مقلّدين مشوهين !

بين مانشرته لك (الرسالة) قطعة (رؤيا في السماء) وقفت عندها مأخوذاً بروعتها ، فأردت أن أنقلها الى اللغة الفرنسية لنشرها في مجلة أدبية في باريس ، وقد ترجمتها فجاءت بما أبقيت لها من أسلوبك الفخم دليلاً على استقلال لغة العرب عن كل هذه الأساليب التي ينتحيها أكثر كتابنا مأخوذة عن الأسلوب الغربي ، وعلى تفرّد بيانها بهذا الايجاز المعجز وفيه سر سحرها وبهائها

إن في مقالك من الدفاع عن حق الحياة وواجبات الحياة ما يعزز الوحي الذي أنزل على عيسى ومحمد (عليهما السلام) تحت سماء الشرق ، فلم ينفذ الغربيون الى كنهه في مبادئ المسيحية إذ ذهبوا منها في مسألة التبتل مذهباً أتى به الحواري بولس متأثراً بفلسفة الرومان وضائقة أزمنة الاضطهاد ، لذلك ترى الأمم الغربية عند ما تقف واجفة من تناقص النسل تهب الى معالجة الاخطار المحدقة بها متوسلة بنظريات الكفاح والتفوق على الأمم المجاورة ، فهي ترمي طلعات الأطفال فيالق للجهاد في ساحات الحروب من أجل المال ، وكتلاً من لحم تعصرها الآلات عصراً فتتدفق بدمائها رحيقاً تتجرعه المدنية سماً زعافاً

إن الغربيين ليفوتهم أن يحاربوا أعداء الأسرة والنسل بالمبادئ الروحية تتناول ماوراء هذه الحياة . وما أذكر مما قرأت لكتاب الغرب أنهم شعروا بالأبوة كما شعرت بها أنت مخترقة حجاب الموت لتتجلى عند هدفها الأسمى في عالم الخلود

إن الأدب الغربي يقف بالأبوة عند نهاية الشطر الفاني من الحياة ، فهو يرى الأرحام تدفع بالأجنة للقبور لا للأبد ، لذلك أردت ألاّ يفوته ما أتيت به في مقالك الرائع من دعوة هي أقوى ما يتوسل به داع إلى حق الله في تناسل عباده . وقد ترجمت هذا المقال لا مباهاة بروح الشرق العربية التي تهب من كل سطر فيه فحسب ، بل لأنشر أيضاً في الغرب ما استوحته عبقريتك الشرقية من مبادئ الهداية الخالدة

إن هذا الحديث الذي أنطقت به أبا خالد وشيخه أبا ربيعة ، لخير ما ابتكرته الآداب العالمية في هذا المطلب ، وهذه الرؤى التي تقبض على الروح وترفعها قسراً إلى عالم الخفاء لتبسط من الحق أمام المتطلعين إلى ماوراء المادة ما يشعرون به في قرارة نفوسهم وينكرها عليهم عقلهم المنتبه المحلل الغارق في لجج الزائلات من قوة ومال ودول وجنود وحروب

غير أنني قبل أن أعلق على مقالك بما لا أرى بداً من إيراده بالفرنسية ، أجدني مضطراً لايضاح وجيز لا أراك تضن به ، فان في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالاً للذهاب مذاهب تختلف اختلافاً بيناً عند النتيجة التي ترمي إليها

قلت : إن أبا ربيعة وقف في آخر حلمه تمر به طغمة الخالدين وتلقي إليه بكلمة (المشئوم) حتى مر غلام هو آخرهم فقال له :

« كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتحزنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا »

فهل لك أيها الأستاذ الكبير أن تأتينا بايضاح عما رآه الحق

للمعضل الذى هو فيه ، فجرى الى معمله ، وكان نضده قد تغطى بقوارير مكسورة وزجاجات مهجورة تبعثرت جميعها عليه فكانت شواهد على ما كان فيه رجلنا من ترك ويأس . ومدّ يده الى قِمطر فأخرج منه قبابه . لقد كان ضلّ الطريق واليوم اهتدى اليه ، وعما قريب يثبت أن نيدم مخطىء ضــال . وتعطى بملأ رئتيه وُسعهما ، ثم زفر زفرة طويلة أبدلته من ضيق سعة ومن أزمة فرجا . ومع أنه لم يكن أثبت أن ما بدا له هو التفسير الحق لصفير الهواء ، إلا أنه وثق بالذى ارتآه وثوقاً آثر معه أن يستعجل الغبطة والسرور . ونظر الى القبابات وابتسم وقال : « كل القبابات التى استخدمتها فيما سبق كانت لها رقبة واسعة استلزمت حرارة كثيرة وتسخيناً طويلاً لتسييح وبتم ختمها . وهذه الحرارة الكثيرة تطرد الهواء من القبابة قبل لحامها ، فلا عجب إذن أن يندفع الهواء فيها إذا فُض اللحام »

وارتأى أن ما قاله نيدم عن إغلاء القبابات الملحومة فى الماء وإفساده مرونةَ ما بداخلها من الهواء كلام هراء . ولكن أنىّ له بإثبات ذلك ؟ أنىّ له بختم القبابة دون أن يطرد هواءها ؟ وجاء شيطانه يوسوس اليه ، فأخذ قبابة أخرى فوضع بها بذراً وملأ بعضها بالماء ، وأدار رقبتها فى اللهب الشديد حتى ساحت وضاقت حتى كادت تلتحم إلا ثقباً صغيراً ضيقاً يصل بينها وبين هواء الجو . عندئذ برّد القبابة ؛ حتى إذا تمت برودتها قال : « إن الهواء بداخلها لابد أن يكون مثله بخارجها . ثم جاء بلهب صغير سلطه على الثقب الباقى وهو كعين الابرة فسدّه فى لمحة دون أن ينطرد من هواء القبابة شىء . فلما اطمأن الى ذلك وضع القبابة فى الغلاية وأخذ يرقبها ساعة ، وبينا هى تتأرجح وترقص فى الماء كان هو ينشد الشعر ويترنم بالغناء . ثم نحاها أياماً ، وفى ذات صباح جاء ليفتحها وهو واثق بما سيكون ، فأشعل شمعة وأدناها من فم القبابة ، وفى حذر شديد كسر فاها فسمع صفيراً ، إلا أن لهب الشمع لمْ ينجذب الى القبابة فى هذه المرة بل مال عنها ، دليلاً على أن مرونة الهواء داخلها أكثر من مرونته خارجها !

فكل هذا الغلى لم يفسد مرونة الهواء ، بل على النقيض قد زاد مرونة ، تلك المرونة التى قال نيدم بضرورتها لتلك القوة النباتية العجيبة . وأخرج اسبلنزانى من المرق القطرة فالقطرة ، وعبثاً حاول أن يجد فيها من الأحياء شيئاً برغم ازدياد مرونة الهواء . وأعاد التجربة فالتجربة بتلك الشارة التى عرفناها عن « لوفن هوك » ، وكسر قبابات وكبّ المرق على صدر قميصه ووسخ يديه ، ولكنه لم يخرج على غير تلك النتيجة التى سلفت

— ٥ —

انتصر اسبلنزانى فصاح بتجاربه ليسمع أوروبا ، فتردد صداه شرقاً وغرباً ، وسمعه نيدم وبيفون فجلسا على أنقاض نظريتهما البالية ينعيان أطلالها فى كآبة ظاهرة وحزن باد . وما كان لها مندوحة من هذا ، وقد أفسدها عليهما هذا الطليانى بحقيقة واضحة بسيطة . فلما اطمأن على الذى كان ، جلس يكتب . وبمقدار براعته فى المعمل كان بارعاً فى المكتب ، وعلى حسن جلاده بالقبيباب والمدس ، كان يحسن الجلاد بالقرطاس والقلم ، على شريطة أن يكون قد اطمأن إلى أن حقائقه المعملية قد سبقت فغلبت فى الصراع خصيمه ، وهذا ما كان ، فهو فى هذا الوقت كان قد اطمأن إلى انصراع نيدم ، وإلى ضياع نظريته الفكهة التى تنشئ الشئ من لا شئ . وكان اطمأن إلى أن الحيوانات جميعاً — حتى تلك الحيوانات الصغيرة — لا تأتى إلا من حيوانات مثلها عاشت من قبلها ، وإلى أن هذه المكروبات الصغيرة تظل طيلة حياتها مكروبات من النوع الذى كانته آباؤها ، فاذا هى أنتجت كان نتاجها من جنسها ؛ كذلك الحمار فى حياته لا يستحيل جملاً ، وهو لا يأتى إلا عن حمار ، فاذا ولد فانما يلد حماراً

وصاح اسبلنزانى يقول : « واختصاراً قد ثبت أن نيدم مخطئ ، وقد أثبتُ فوق هذا أن فى علم الأحياء نظاماً وقانوناً ، كما أن فى علم الأفلاك قانوناً ونظاماً » ثم أخذ يصف ما تكون حال هذا العلم لو أن نيدم لم يجد من يراقبه ويحاسبه ، إذن لعشنا فى اختبال وارتياع من نزق هذه « القوة النباتية » المتقلبة الهوجاء تلك القوة التى إن هى شاءت أخرجت من الشئ ضفدعة ، وإن هى شاءت أخرجت منه كلباً ؛ أو هى تخرج منه اليوم فيلاً ، وغداً عنكبوتاً ؛ أو تخرج منه فى الصباح حوتاً سابحاً ، وفى الظهر بقرة حلوباً ، وفى المساء إنساناً ناطقاً

قضى على نيدم ، وقضى على قوته النباتية ، وأصبح الانسان يستمرئ العيش ، ويستنشق الهواء فى أمان وسلام ، فلا تروعه تلك القوة الرهيبة اللعينة التى كان يتخيلها مخبوءة فى هذا الركن ووراء ذلك الحائط تنتهز الفرصة لتحيله فيلاً أو تخلق منه غولاً

وسرى اسم اسپلنزانى فى جامعات أوروبا يسطع كالماس ، ويتألق كالنجم . وأيقنت جماعاتها العلمية بأنه عالم العصر الأوحد وكتب اليه فريدريك الأكبر Frederick the Great كتباً طويلة ، وبيمينه أمضى براءة تعيينه عضواً فى أكاديمية برلين . وماريا تريزا maria Theresa امبراطورة النمسا وعدوة فريدريك اللدودة ، نافست هذا الملك العظيم فى تكريم هذا العالم الكبير ، فنفسته ، وذلك أنها عرضت عليه أن يكون أستاذاً فى جامعة پافيا Pavia العتيقة بلمبارديا Lombardy فانفذت اليه رسلها من عظام مستشاريها فجاءوه فى حفل ضخم ، وموكب فخم ، مثقلين بكتب ملكية ، وأختام امبراطورية ، يتوسلون اليه فى قبول المنصب عسى أن تجد جامعتهم فيه منقذها من السوء الذى هى فيه ، ورافعها من الدرك الذى هبطت اليه . وجرت بينه وبينهم مناقشات ، وجرت مباحثات ومساومات ، فى الأجر الذى يتقاضاه اسپلنزانى ، فقد كان دائماً يحسن جمع المال كلما أمكنته الفرصة . وانتهت تلك الأحاديث بقبوله أستاذية التاريخ الطبيعى بالجامعة ، وبتنصيبه أميناً لمتحف التاريخ الطبيعى فى پافيا كذلك

وذهب إلى متحف پافيا فوجده خاوياً خالياً . فشمر عن ساعده ، وأخذ يحاضر فى كل ماهب ودبّ ، ويلقى دروساً فى الجمهور يضمنها تجارب كبيرة هائلة يجريها على سمعهم وأبصارهم فهالت الناس وراعتهم ، لأن النجاح كان يأتيها دائماً من حذق يديه ، وأراد أن يملأ متحفه الخالى فأرسل إلى هنا وإلى هناك فى طلب مجموعات من حيوانات عجيبة ونباتات غريبة وطيور لا يعرفها القوم . وذهب هو بنفسه إلى الجبال فتسلقها على خطورة مرتقاها ، ورجع منها بركائز كثيرة وخامات غالية . وذهب إلى البحار يصطاد قروشها المفترسة ، وإلى الغاب يقتنص من ذوات الريش كل ذات لون بهيج . ذهب كل مذهب ليس من اليسير تحقيقه ، وضرب كل مضرب ليس من الهين تصديقه ، وكل هذا فى سبيل الجمع لمتحفه ، وفى سبيل التخفف من ذلك النشاط الجم و تلك الطاقة الصخابة التى امتلأ بها جلده فخرجت به عما وسم العرفُ به العلماءَ من طأنينة وهدوء .

وفى الفترات التى تخللت هذا التجميع وهذا التدريس ، كان ينفلت الى معمله بأمراقه ومجاهره فيغلقه على نفسه ، ويجرى فيه التجارب الطويلة ليزيد فى إثبات أن الأحياء الصغيرة تنصاع لقوانين الطبيعة انصياع الخيل والفيلة والرجال لها . ووضع قطرات من أحسيته وهى تموج بالمكروب على قطع من الزجاج المنبسط ، ونفخ فيها من دخان تبغه ، ثم أسرع فنظر إليها بعدسته ، ثم ضحك ملءَ فيه عندما رآها تتهارب لتتقى أثرَ دخانه ، وأطلق عليها شرراً كهربائياً ، وعجب لما رآها تطيش وتميد ، ثم تتمطى وتموت سريعاً

قال اسپلنزانى : « إن بذور هذه الأحياء الدقيقة أو بيضها قد يختلف عن بيض الدجاج أو بيض الضفدع أو بيض السمك ، وهذه الأحياء نفسها قد تصمد للماء الغالى فى قباباتى المختومة ، ولكن عدا هذا فهى يقيناً لا تختلف عن سائر الحيوانات » . ولم يكد أن ينطق بهذا اليقين حتى عاد يسترد ما انفلت به من أنفاسه

فذات يوم وقد انفرد فى معمله قال لنفسه : « كل حيوان على ظهر هذه الأرض لا بد له من الهواء ليحيا ، وإذن فلأتبين حيوانيّة هذه الأحياء الصغيرة فأضعها فى فراغ خلو من الهواء وأرقبها وهى تموت » . وبراعة بيّنة مطّ بالنار من أنبوب الزجاج السميك أنبوباً شعريّاً رفيعاً كما كان يصنع « لوڤن هوك » وغمس أنبوبة منها فى مرق يعجّ بتلك الأحياء ، فصعد فيها منه شىء . وأساح أحد طرفيها فى النار فسدّه ، ووصل الطرف الآخر المفتوح بمضخّة قويّة لتفريغ الهواء ، وشغّلها ، ولصق عدسته بجدار أنبوبة الزجاج الرفيع ، وأخذ يصوّب بصره إلى تلك الأذرع الدقيقة التى منحها الله لتلك الأحياء لتجدف بها فى الماء ، وظل يرقب من ساعة لأخرى علّه يجد فى حركتها المنتظمة الهادئة مَيَداناً وطَيَشاناً ، وأخذ يتربص الفناء بتلك الأحياء ، ولكن المضخة ظلّت فى دورانها ، وظلت الأحياء فى جريانها وروغانها متناسية صاحبنا العالم ومضخته البديعة ، متجاهلة هذا الهواء الذى يقول بلزومه لحياة الأحياء . وعاشت أياماً . وعاشت أسابيع . وأعاد اسپلنزانى تجربته المرة بعد المرة . هذا غريب ! . هذا محال . لا يعيش حىّ بلا هواء ، كيف تتنفس هذه الأحياء . وكتب الى صديقه « بونيت » Bonnet متعجباً مستغرباً : —

« إن طبيعة هذه الحُيَيْوانات مدهشة . فانها تعيش فى الفراغ مثل عيشها فى الهواء ، وتنشط فى هذا نشاطها فى ذلك ، فهى